الآداب | مجلة علمية فصلية محكمة
تعنى بالدراسات اللغوية والأدبية
للدراسات اللغوية والأدبية
(EISSN): 2708-5783 ISSN: 2707-5508

7 العدد السابع
سبتمبر2020

العَتَبَاتُ فِي تَفْسِيرِ التَّحْرِيرِ وَالتَّنْوِيرِ لابْنِ عَاشُورٍ
مُقَارَبَةٌ سِيمْيَائِيَّةٌ

د. إبراهيم بن محمد هجري *
imyh1399@gmail.com

ملخص:

حاول هذا البحث الوقوف على **(العَتَبَاتِ فِي تَفْسِيرِ التَّحْرِيرِ وَالتَّنْوِيرِ لابْنِ عَاشُورٍ)**؛ لاكتناه ماهية هذا التفسير، وللكشف عن مدى صلة هذه العتبات بالنص الأصلي، معتمدًا في ذلك على منهج تفرضه طبيعة البحث وهو المنهج (السيميائي) باعتباره منهجا إجرائيا، مع الإفادة من نموذج (جينيت) في تحليل العتبات من خلال التركيز على مبدأين من مبادئه وهما: المبدأ الوظيفي، والمبدأ التداولي. وقد نهض في مبناه على: مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، وقائمة بالمصادر والمراجع، وخلص إلى نتائج متعددة منها: إجادة (ابن عاشور) في اختيار عنوان تفسيره؛ حيث انفتح هذا العنوان على وظائف متعددة، ومن زاوية أخرى كشف لنا هذا العنوان عن تأثر (ابن عاشور) بالثقافة الغربية، لقد نهضت عتبتا (التمهيد) و(المقدمات العشر) بوظيفة توضيحية منهجية، تمكن المتلقي من قراءة جيدة للنص الأصلي، وتجلى وعي (ابن عاشور) بالعملية التداولية في خطابه للمخاطبين كلّ على حسب حاله. إن هناك علاقة جدلية تفاعلية ذات تأثير متبادل بين العتبات والنص الأصلي، أي بين الخارج والداخل؛ فكلاهما صدى للآخر. وقد كشفت هذه العتبات عن (أيديولوجية ابن عاشور) التي تتبنى البعد الإصلاحي على مستوى الفرد والمجتمع.

الكلمات المفتاحية: العتبات؛ تفسير؛ التحرير؛ التنوير؛ ابن عاشور.

* دكتوراه في الأدب والنقد الحديث - مشرف التطوير المهني التعليمي - إدارة تعليم صبيا - وزارة التعليم - المملكة العربية السعودية.

الآداب | مجلة علمية فصلية محكمة
تعنى بالدراسات اللغوية والأدبية
(EISSN): 2708-5783 ISSN: 2707-5508
للدراسات اللغوية والأدبية

Thresholds in the Interpretation of Liberation and Enlightenment by Ibn Ashour:

A Semiotic Approach

Dr. Ibrahim Bin Mohammed Hijri*

imyh1399@gmail.com

Abstract:

This research attempted to identify the thresholds in the interpretation of liberation and enlightenment by Ibn Ashour with a view to explore is the characteristics of this interpretation, and to reveal the extent to which these thresholds are related to the original text. The study relied on a method determined by the nature of the research, which is the 'semiotic' method within the framework of Genette's model thresholds analysis through focusing on two of its principles; the functional and the pragmatic principles. The study is organized into a preface, an introduction, two sections and a conclusion. It concluded with several findings such as, (Ibn Ashour) succeeded in choosing the title of his interpretation which was open to multiple functions. On the other hand, this title revealed to us the influence of the Western culture on (Ibn Ashour). The two thresholds: the (preface) and the (Ten Introductions), emerged with a systematic explanatory function, enabling the recipient to read the original text well. Awareness of (Ibn Ashour) of the pragmatic process in his address to each recipient according to his own condition was evident. There is an interactive dialectical relationship of mutual influence between the thresholds and the original text, i.e. between the outside and inside. Both of them echo each other. These thresholds revealed (Ibn Ashour's ideology) that adopts the reformist dimension, whether at the individual or community level.

Key Words: Thresholds, Interpretation, Liberation, Enlightenment, Ibn Ashour

*Professor of Literature and Modern Criticism - Supervisor of Educational Professional Development, Sabia Education Ministry of Education - Saudi Arabia

المقدمة:

لايزال الفكر النقدي مستمرًا في ترسيخ وجوده عبر فتح مسارات جديدة للدرس النقدي، مع إيجاد آليات اشتغال تمنهج كل ما هو جديد، ومن هذا الجديد النقدي النزوع نحو الأطراف؛ لتتأسس من ذلك سيميائية **(العتبات)** كما هو في الوعي النقدي الحديث؛ فتتحول العتبات بهذا الفعل من الزيادة إلى الريادة، ومن الهامشية إلى المركزية؛ كونها تساهم في عملية تلقي النص الأصلي، وهذا ما يحاول مقاربته هذا البحث الموسوم بـ**(العتبات في تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور)**.

وتكمن أهمية هذا البحث في جانبين: جانب تناوله لـ**(تفسير التحرير والتنوير)**؛ إذ يعدُّ هذا التفسير من أهم التفاسير في العصر الحديث؛ لغزارته، ولاشتماله على آراء مؤلفه التجديدية؛ فقد مكث في تأليفه أربعة عقود يتأمل في هذا العلم، ويدون آراءه. والجانب الآخر لهذه الأهمية تتأتى من تناول هذا البحث **(للعتبات)**؛ بوصفها حقلًا نقديًّا جديدًا؛ إذ اهتم النقد الأدبي الحديث خلال العقود الماضية اهتمامًا بالغًا بالعتبات المصاحبة للنص الأصلي، ومنشأ ذلك يعود إلى التوسع في مفهوم النص؛ إذ لم يعد النص هو ذلك الجزء المكتوب الذي يهيمن على مساحة الكتاب؛ بل امتد ليشمل كل ملحقاته، ابتداءً من غلافه الأمامي وانتهاء بغلافه الخلفي.

وأما الدواعي التي رشحت هذا البحث- بوصفه مقروءا نقديا- فيمكن إجمالها في أربعة أسباب:

- قلة الدراسات النقدية التي تناولت ظاهرة العتبات؛ لكونها حقلًا نقديًّا جديدًا.
- الكشف عن مدى الصلة بين العتبات وبين النص الأصلي.
- قلة دراسات العتبات في النص الديني بصفة عامة، وفي كتب التفسير بصفة خاصة.
- البرهنة على أن النقد الأدبي الحديث يتسع؛ ليشمل حقولًا أخرى غير حقل الأدب.

كما يهدف هذا البحث إلى اكتناه ماهية تفسير (ابن عاشور) من خلال عتباته: (العنوان) و (المقدمات الاستهلالية)، وإلى الكشف عن مدى صلة هذه العتبات بالنص الأصلي، حاملًا -في الوقت ذاته- عدة تساؤلات:

لماذا هذا التحرير وهذا التنوير؟ وكيف تجلى؟ ولماذا كان في التفسير دون غيره؟ وهل هناك علاقة جدلية تفاعلية بين العتبات والنص الأصلي؟ معتمدًا في ذلك على منهج تفرضه طبيعة البحث وهو المنهج (السيميائي) باعتباره منهجا إجرائيا، يتم من خلاله الكشف عن طبيعة هذه العتبات، ومدى صلتها بالنص الأصلي.

وقد سبقت هذا البحث دراسات وبحوث عديدة، تناولت تفسير (ابن عاشور)، ومن أهمها:

1- تفسير (ابن عاشور) التحرير والتنوير (دراسة منهجية ونقدية) لجمال أبو حسان، وقد قدَّم هذه الدراسة للحصول على درجة الماجستير في الجامعة الأردنية عام 1411هـ=1991م، مشتملة على تمهيد، وثمانية فصول، وخاتمة، متحدثًا فيها عن التعريف بـ(ابن عاشور)، وعن معالم مدرسة التفسير في المغرب العربي وأثرها في تفسير (ابن عاشور)، واقفًا عند مصادر ومنهج (ابن عاشور) في تفسيره، كما عرض القضايا اللغوية، والبلاغية، والعقدية، وقضايا علوم القرآن في هذا التفسير، خاتمًا رسالته بمآثر هذا التفسير ومآخذه.

2- منهج (ابن عاشور) في القراءات في تفسيره التحرير والتنوير لبسام عليان، وهو بحث منشور في مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد التاسع عشر، العدد الثاني، في عام 2011م، وقد تحدث فيه الباحث عن بعض القضايا المتعلقة بالقراءات الواردة في هذا التفسير، وعن منهج (ابن عاشور) في هذه القراءات.

3- مبتكرات القرآن الكريم عند (الطاهر ابن عاشور) (دراسة بلاغية) لهاني الصاعدي، وهي رسالة ماجستير في جامعة أم القرى عام 1434هـ=2013م، ركزت على الجانب البلاغي، وقد

قسمها الباحث إلى قسمين: الأول يتجلى فيه الطابع النظري، وعنوانه (الابتكار عند الطاهر ابن عاشور)، والقسم الثاني جاء حاملًا السمة التطبيقية في: المفردات، والتراكيب، والتصوير البياني، والتحسين البديعي.

4- المعنى والتفسير في التحرير والتنوير (قراءة في المنهج من خلال نماذج) لمحمد بن عبد الجليل، وهي رسالة دكتوراه مطبوعة في جزأين، طبعت عام 1436هـ=2015م، تحدث الباحث فيها عن المسائل النظرية لاستمداد المعنى وتأريخية التفسير، وعن مدارس التفسير قديمها وحديثها، وقد وقف عند التفسير في عصر (ابن عاشور)، ذاكرًا أبرز مؤلفات علم التفسير آنذاك، متناولًا مرجعيات (ابن عاشور) في تفسيره، وقد ختم رسالته بمآثر ومآخذ المنهج؛ ليصل من خلال ذلك إلى تقويم (تفسير التحرير والتنوير) ووضعه في ميزان النقد.

5- التطور الدلالي للفظ القرآني عند (ابن عاشور) في تفسيره التحرير التنوير لفادي الرياحنة، وهو بحث نشر في مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد الخامس والثلاثون (2)، لعام 2015م، أورد فيه الباحث حديثًا عن مفهوم التطور الدلالي ومظاهره، وعن تطور الدلالة من معنى لغوي عام إلى معنى شرعي خاص، موضحًا الألفاظ التي انتقلت دلالتها لسبب من الأسباب.

6- مبتكرات القرآن الكريم عند (ابن عاشور) (دراسة نقدية مقارنة) لعماد طه الراعوش، وهو بحث منشور في مجلة جامعة طيبة للآداب والعلوم الإنسانية، العدد الثاني عشر، السنة السادسة، عام 1438هـ، وقد بين الباحث في بحثه المقصود بهذه المبتكرات، وضابط القول بالابتكار، مقسمًا هذه المبتكرات إلى: مبتكرات في النظم، ومبتكرات في الأساليب، ومبتكرات في المعاني والمحسنات البديعية، ومبتكرات في الألفاظ والتراكيب.

7- العتبة في التراث الإسلامي (قراءة في الوظائف من خلال أنموذجين من كتب التفسير) لمحمد يوسفي، وهو بحث منشور من قبل مؤسسة (مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث) في

المملكة المغربية، تناول فيه الباحث عتبة المقدمة في تفسيري: (جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري، وتفسير التحرير والتنوير) لابن عاشور، وقد هيمن عليه المنهج الوصفي؛ ليعقد من خلال هذا الوصف مقارنة بين منهج الطبري، ومنهج ابن عاشور في التفسير؛ ليقرر أن الأول التزم بالمأثور، وأن الثاني تبنى التفسير بالرأي.

وبهذا يكون هذا البحث قد تفرد بتركيزه على عتبة العنوان مع عتبة المقدمات الاستهلالية، وباعتماده على مبدأين أساسيين من مبادئ (جينيت) في تحليل العتبات وهما: المبدأ الوظيفي، والمبدأ التداولي، وقد نهض في مبناه على: مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، وقائمة بالمصادر والمراجع على النحو الآتي:

- **المقدمة:** عرض فيها الباحث موضوع البحث، ومدى أهميته، مشيرًا إلى الأسباب التي دفعته لاختياره، والأهداف التي سعى البحث إلى تحقيقها، والمنهج الذي اعتمد عليه، مستعرضًا بعض الدراسات السابقة التي تناولت تفسير (ابن عاشور) التحرير والتنوير.

- **التمهيد:** تحدث فيه الباحث عن: 1- مفهوم العتبات وأهميتها. 2- أهمية تفسير التحرير والتنوير.

- **المبحث الأول:** خصصه الباحث للحديث عن المبدأ الوظيفي للعتبات.

- **المبحث الثاني:** خصصه الباحث للحديث عن المبدأ التداولي للعتبات.

- **الخاتمة:** احتوت على أهم ما توصل إليه البحث من نتائج، وتلتها قائمة بالمصادر والمراجع.

راجيًا أن يحمل هذا البحث قيمة نقدية، تضاف إلى تلك الدراسات السابقة، ويستفاد منها في عالم النقد الحديث.

التمهيد:

أوَّلًا: مفهوم العتبات وأهميتها

كشفت الدراسات النقدية الحديثة عن أهمية العتبات في الدرس النقدي؛ إذ تحولت علاقتها بالنص المركزي من العرضية إلى البنائية التي لها خصائصها الشكلية ووظائفها الدلالية؛ ومن هنا تشكلت أهميتها بوصفها "خطابًا موازيًا للخطاب الأصلي (وهو النص)، يحركه في ذلك فعل التأويل، وينشطه فعل القراءة شارحًا ومفسرًا شكل معناه"[1]، كما أنها تأخذ أهميتها من خلال وحدة التأثير، أو القوة التداولية[2]؛ حيث تمثل أول لقاء بين الكاتب والقارئ؛ لنقل الرسالة المراد توصيلها.

ويعدُّ (جيرار جينيت) أبرز من كتب عن هذا الموضوع؛ انطلاقًا من مشروعه الشعري ذي الفضاء الواسع؛ حيث انخرط- كباقي السيميائيين والشعريين- في مُساءلة النص ومكوناته السردية، متجاوزًا النص الأصلي إلى مناطق متاخمة له؛ لاعتقاده بأن النص/ الكتاب قلما يظهر عاريًا من مصاحبات لفظية أو إيقونية تعمل على إنتاج معناه ودلالته، كاسم الكتاب، والعناوين، والإهداء...، وبمساءلته لهذه المنطقة المحيطة بالنص والدائرة في فلكه، استطاع أن يضع مصطلح المناص (paratexte)، أي ذلك النص الموازي لنصه الأصلي[3].

والعتبات- وإن تعددت تسمياتها- هي نمط من أنماط المتعاليات النصية، ونقطة عبور نحو النص المركزي؛ إذ هي بمثابة الهو الذي يسمح لكل منا دخوله أو الرجوع منه[4]. كما أنها "مجموع النصوص التي تحيط بمتن الكتاب من جميع جوانبه: حواشٍ، وهوامش، وعناوين رئيسة، وأخرى فرعية، وفهارس، ومقدمات، وخاتمة، وغيرها من بيانات النشر المعروفة التي تشكل في الوقت ذاته نظامًا إشاريًّا ومعرفيًّا، لا يقل أهمية عن المتن يخفره أو يحيط به، بل إنه يلعب دورًا هامًّا في نوعية القراءة وتوجيهها"[5]، وبناءً على هذا؛ فإن العتبات تتمظهر في مظهرين: التبعية لنص أصلي، والتأثير في توجيه دلالة هذا النص.

ثانيًا: أهمية تفسير (ابن عاشور)

ينتسب (ابن عاشور)[6] إلى أسرة علمية؛ فجده لأبيه تقلد مناصب مهمة كالقضاء، والإفتاء، والتدريس، والإشراف العام على الأوقاف الخيرية، والنظارة على بيت المال، والعضوية بمجلس الشورى، كما أن له مؤلفات مطبوعة. وكذلك والده وإن لم تكن له آثار علمية إلا أنه قد برز في ميدان المسؤوليات الوظيفية؛ فكان لنشأته في هذه البيئة العلمية أثرها في تكوينه العلمي والفكري، لا سيما أنه تتلمذ فيما بعد على علماء الزيتونة الذين ينادون بالإصلاح في كل مكان وزمان، فنهل من علومهم المتنوعة: كالنحو، والبلاغة، واللغة، والمنطق، وعلم الكلام، والفقه، والفرائض، وأصول الفقه، والحديث، والسيرة، والتأريخ، فضلًا عن حفظه القرآن الكريم منذ وقت مبكر، وقد ساعده في ذلك ذكاؤه المتقد، وقدراته العقلية العالية؛ فكان ينزع منزع التجديد منذ حداثة سنه؛ حيث كان ينتقد الطرق التربوية السائدة في عصره[7].

ومما لا شك فيه أن هذه المؤثرات الفكرية أنتجت وعيًا أكثر انفتاحًا في فهم القرآن، وتركت عقله يعيد التفكير في قضاياه المعاصرة؛ فانعكس ذلك على تفسيره الذي حمل سمة الموسوعية التي تدل على سعة علم (ابن عاشور)، وتنوع مناحي ثقافته، ومنشأ هذه الموسوعية من دعوته إلى ضرورة استمداد المعنى التفسيري، ويرى أن هذا الاستمداد يتحصل من مجموع علوم العربية، وعلم الآثار، ومن أخبار العرب، وأصول الفقه، وعلم الكلام، وعلم القراءات[8]، وهو ما تجسد واقعًا في أثناء هذا التفسير. كما تبرز أهمية هذا التفسير من جانب تبني (ابن عاشور) للتفسير بالرأي[9]، وبناء على هذا يمكن القول: إن الموسوعية العلمية لـ(ابن عاشور) أهلته لامتلاك الرواية، وإن استناده إلى التفكير العقلي ملّكه الدراية، ومن مجموع الرواية والدراية تتشكل أهمية هذا التفسير.

وقبل الشروع في المبحثين، يحسن أن نذكر أن هذه العتبات التي سيقف البحث عندها هي: **(العنوان)**، و**(المقدمات الاستهلالية)** بشقيها **(التمهيد/ المقدمات العشر)**، وهي ما يعرف عند (جينيت) بالمناص التأليفي، وتعود مسؤوليتها في الأساس إلى الكاتب/ المؤلف لا إلى الناشر، كما نذكر أيضًا أن تجلية هذه العتبات سيكون من خلال عرضها على أهم مبدأين من مبادئ (جينيت) في تفسير العتبات، وهما: المبدأ الوظيفي، والمبدأ التداولي.

المبحث الأول: المبدأ الوظيفي

ويعمل هذا المبدأ على تحديد وظيفة العتبة التي تبرر وجودها؛ فالعتبات بكل أشكالها -كما يقول جينيت- في الأصل خطاب مساعد وموجه لخدمة النص الأصلي[10]، وقبل تحديد وظائف العنوان يمكننا القول: إن العنوان يشكل بداية ونهاية في آن معًا؛ فهو أول ما يواجه القارئ، وفي الوقت ذاته يكون آخر ما يكتبه المؤلف[11]، وهو قبل ذلك علامة أو إشارة تواصلية له وجود فيزيقي/ مادي؛ إذ يغدو إشارة مختزلة ذات بعد إشاري سيميائي، فضلًا عن كونه ذا حمولات دلالية، وعلامات إيحائية شديدة التنوع والثراء[12]؛ ومن هنا، فإن هذا العنوان **(تفسير التحرير والتنوير)** من خلال التركيب النحوي يتكون من: مبتدأ محذوف تقديره (هذا) + خبر وهو (تفسير) + مضاف إليه + حرف عطف + معطوف)؛ ليشكل هذا التركيب النحوي جملة من الدلالات اللغوية والفلسفية التي تحيل على مقصدية (ابن عاشور) من تفسيره ربما تقودنا هذه المقصدية إلى مرجعية ما قد تكون: فكرية، أو سياسية، أو مذهبية، أو إيدولوجية.

إن العلامات التي ارتكز عليها عنوان (ابن عاشور) هي: **(تفسير - تحرير - تنوير)**؛ فعلامة **(تفسير)** تتموضع هنا بوصفها مؤشرًا جنسيًا؛ لبيان حقيقة هذا المؤلَّف، وأنه ينتمي إلى جنس كتب التفاسير. وأما علامتا **(تحرير)** و**(تنوير)** فلهما حمولات لغوية وفلسفية يمكن الوقوف على شيء منها، لا سيما أنها قد تكررت باشتقاقاتها على النحو الآتي:

الكلمة	تكرارها	الكلمة	تكرارها
حرر	43	تنور	21
يحرر	3	ينور	3
محرر	31	منور	3
تحرر	4	نور	595
تحرير	46	تنوير	11

إن المعنى اللغوي لعلامة **(تحرير)** يدور حول: العودة إلى الأصل، والثوران، والإصلاح[13]، وأما في الوعي الفلسفي فقد قيل: حرر العبد أعتقه، وحرر الشيء حسنه، وأصلحه، وأزال شوائبه، ومنه تحرير الوطن من الاحتلال الأجنبي، وتحرير الشعب من المرض، والفقر، والظلم، وتحرير النفس من الأخلاق المذمومة[14]. ومن هنا؛ فإن المعنى الفلسفي لا يختلف كثيرًا عن المعنى اللغوي.

وأما دلالة علامة **(التنوير)**؛ فإنها لغويًّا تتموضع في دلالة القدرة على الكشف، والاستبيان، والاستبصار[15]، وأما من المنظور الفلسفي فهي اتجاه في الفلسفة الاجتماعية، يسعى ممثلوه إلى تغيير أخلاقيات المجتمع، وأساليبه، وسياساته في الحياة[16].

ومن هذا المنطلق؛ فإن مجموع المعاني اللغوية والفلسفية لعلامتي: **(التحرير)** و**(التنوير)** تحيل إلى الخروج من حالة غير مرضي عنها إلى حالة مرضي عنها، كما تحيل أيضًا إلى التطور والإصلاح. واستنادًا إلى هذه المعاني؛ فإنه يمكن رصد بعض وظائف العنوان؛ انطلاقًا من نمذجة (جينيت) لوظائف العنونة:

الوظيفة التعيينية:

يحتل العنوان هنا **(تفسير التحرير والتنوير)** موقع العنوان الإخباري الذي يحيل على الجنس، أي أن ما سيقرؤه القارئ ينتمي إلى جنس كتب التفاسير، وهو ما تؤكده علامة (تفسير)؛

لتأتي علامتا (تحرير) و(تنوير) معينة لهذا التفسير بكل دقة، رافعة عنه احتمالات اللبس؛ فإذا ذكر هذا العنوان **(تفسير التحرير والتنوير)** انصرف ذهن السامع إلى تفسير (ابن عاشور) لا إلى غيره.

الوظيفة الوصفية:

وهي الوظيفة التي تصف شيئًا من النص الأصلي، وتقوم على تلخيصه[17]، وهذا ما جسده عنوان **(تفسير التحرير والتنوير)**، ففيه وصف وتلخيص لماهية النص الأصلي، وأنه قائم على تحرير المعنى من قبضة التقليد، وعلى تنوير العقل بتوسيع آفاقه؛ ليكون متجاوزًا التفاسير السابقة عليه، وهذا ما تشي به الحمولات اللغوية والفلسفية لعلامتي: **(التحرير)** و**(التنوير)**.

الوظيفة الإيحائية:

وهذه الوظيفة لها ارتباط وثيق بالوظيفة السابقة، ويأتي هذا الارتباط من كون كلا الوظيفتين تحيل على الاختزال؛ فإذا كان العنوان **(تفسير التحرير والتنوير)** عنوانًا واصفًا فهو أيضًا يحمل قيمة إيحائية، تتمثل في أنه لا يشف عن مقصده بشكل مباشر، بل لابد من التأويل؛ كي نصل إلى مراد المؤلف الذي أراد أن ينهج في تفسيره نهجًا مغايرًا يتسم بالجدة، ابتداءً من العنوان الذي يحمل معه جدة في الاصطلاح؛ إذ لم يكن وليد الثقافة الإسلامية، بل هو امتداد لروح الثقافة الغربية، الأمر الذي يعكس لنا تأثر (ابن عاشور) بهذه الثقافة، من خلال احتكاكه المباشر وغير المباشر برواد الإصلاح والتجديد الغربي[18]. ومن زاوية أخرى كشفت لنا هذه الوظيفة عن الحساسية الجمالية الأدبية التي يتمتع بها (ابن عاشور).

الوظيفة الإغرائية:

وهذه الوظيفة جلية في عنوان **(تفسير التحرير والتنوير)**؛ إذ فيها إغراء للقارئ وجذب له؛ فيحدث هذا الجذب تشويقًا وانتظارًا لديه؛ إذ يجعله هذا العنوان في سؤال دائم: ما المقصود

بعلامتي **(التحرير)** و**(التنوير)**؟ وماذا يريد أن يحرر وأن ينور **(ابن عاشور)**؟ ولماذا هذا التحرير وهذا التنوير؟ وكيف سيكون؟

ومن خلال ما تقدم، فإن عنوان تفسير (ابن عاشور) قد خرج عن مألوف عناوين التفاسير في الموروث الإسلامي، وربما يعود ذلك إلى إيمان (ابن عاشور) بأهمية الوظيفة التي يؤديها العنوان؛ لكونه علامة مركزية للنص الأصلي.

فإذا كانت هذه هي وظائف العنوان **(تفسير التحرير والتنوير)**، فإن **(للمقدمات الاستهلالية)** في هذا التفسير وظائف تنهض بها؛ بوصفها "وعاء معرفيًا وأيديولوجيًّا، تختزن رؤية المؤلف، وموقفه من العالم، وتتيح له العديد من إمكانيات التعبير، والتعليق، والشرح"[19]. ومهما يكن، فإن لهذه المقدمات الاستهلالية وظيفتين أساسيتين على وجه العموم، هما: "تقديم خطة الكتاب من جهة، وتوجيه قراءته من جهة أخرى؛ لتكون خطابًا واصفًا للكتاب، تتكلم عنه، وتصفه من أوله"[20]؛ ليتشكل من هاتين الوظيفتين المركزيتين سؤالان، هما: لماذا؟ وكيف يمكن قراءة هذا الكتاب/التفسير؟ وليحمل هذان السؤالان- في الوقت ذاته- مجموعتين من الوظائف: الأولى ترتبط بـ(ماذا)، والثانية تشتمل على (كيف)[21]، وقد تجلت هذه الوظائف في عتبتي: **(التمهيد)** و**(المقدمات العشر)** على النحو الآتي:

الأهمية:

وتتمثل- بحسب قول ابن عاشور- في تجاوز التفاسير السابقة؛ إذ لم يقتصر على الحديث المعاد؛ بل يورد نُكتًا لم يسبق إليها، ومن هنا؛ فـ(ابن عاشور) في تفسيره يركز على وجوه الإعجاز، والنكت البلاغية، وتناسب الآيات بعضها مع بعض، وأنه لم يغادر سورة إلا وبيّن أغراضها، كما بيّن معاني المفردات في اللغة العربية ضبطا وتحقيقا قلما نجد نظيره في قواميس اللغة[22]. في حين تتشكل أهمية **(المقدمات العشر)** في كونها شرحًا تفصيليًّا للمنهج الذي سار عليه (ابن عاشور) في تفسيره، ومن جهة أخرى، هي قواعد كلية، يضعها بين يدي مخاطبه/المفسر؛ ليقول من خلالها:

إن من أراد أن يحرر وأن ينور؛ فعليه باتباع ما جاء في هذه المقدمات، وهذا بدلالة ملفوظه: "وها أنا أبتدئ بتقديم مقدمات تكون عونًا للباحث في التفسير، وتغنيه عن معاد كثير"[23]، وعلى هذا؛ فإنه يمكن القول: إن هذه المقدمات تأخذ أهميتها بوصفها مقدمات معرفية ممنهجة.

الجديد والقديم:

وهو ما جعل (ابن عاشور) يطرح هذا التمهيد لموضوع قديم وهو (التأليف في التفسير)؛ إذ يقرر أنه في تفسيره يتجاوز القديم بعبارته المشهورة: "ففيه أحسن ما في التفاسير، وفيه أحسن مما في التفاسير"[24]، وقد أكد هذا التجاوز في أكثر من موضع في **(مقدماته العشر)**، من ذلك ما ذكره في مقدمته العاشرة؛ حيث أشار إلى أن القارئ/المفسر لهذه المقدمة سيجد أصولًا ونكتًا أغفلها المتقدمون ممن تكلموا عن إعجاز القرآن مثل: الباقلاني، والرماني، وعبدالقاهر، والخطابي، وعياض، والسكاكي...[25].

الصدقية:

تتجلى هذه الصدقية في ملفوظه: "... ولست أدعي انفرادي به في نفس الأمر، فكم من كلام تنشئه تجدك قد سبقك إليه متكلم، وكم من فهم تستظهره وقد تقدمك إليه متفهم..."[26]، وهذه الصدقية تأخذ خطاب التواضع من (ابن عاشور)، كما تأخذ خطاب الواقي من وطأة النقد السلبي.

التكوين:

كانت إحدى أمانيّ (ابن عاشور) تأليف كتاب في التفسير، وعلى الرغم من كلفه بهذه الأمنية فإنه عاش زمنًا بين الإقدام والإحجام؛ لانشغاله بالقضاء والفتيا، لكنه عقد العزم على تحقيق ما أضمره؛ فبذل الوسع من الاجتهاد على حد قوله: "فإني بذلت الجهد في الكشف عن نكت من معاني القرآن وإعجازه خلت عنها التفاسير، ومن أساليب الاستعمال الفصيح ما تصبو

إليه همم النحارير"[27]. وفي هذا البذل من الجهد ما يشف عن المعاناة التي عرضت له أثناء القيام بتأليف هذا التفسير، ولا سيما أنه قد مكث في وضعه ما يزيد عن أربعة عقود.

مؤشر السياق:

وقد تعرض (ابن عاشور) في تمهيده للسياق الذي انتظم فيه تفسيره؛ إذ يعدُّ جزءًا من تفاسير متعددة، جاء هذا في قوله: "... وإن أهم التفاسير تفسير "الكشاف" و"المحرر الوجيز" لابن عطية و"مفاتيح الغيب" لفخر الدين الرازي، وتفسير البيضاوي، وتفسير الشهاب الآلوسي، وما كتبه الطيبي، والقزويني، والقطب، والتفتازاني على الكشاف، وما كتبه الخفاجي على تفسير البيضاوي، وتفسير أبي السعود، وتفسير القرطبي، والموجود من تفسير الشيخ محمد بن عرفة التونسي من تقييد تلميذه الأبي... وتفسير الإمام محمد بن جرير الطبري، وكتاب درة التنزيل المنسوب لفخر الدين الرازي... وقد ميزت ما يفتح الله لي من فهم في معاني كتابه وما أجلبه من المسائل العلمية، مما لا يذكره المفسرون، وإنما حسبي في ذلك عدم عثوري عليه فيما بين يدي من التفاسير..."[28].

إن هذا المؤشر السياقي يسعف القارئ بكيفية تلقي تفسير (ابن عاشور)؛ حيث يعلم أن (ابن عاشور) قد أفاد من هذه التفاسير؛ سعيًا إلى تجاوزها، وهذا التجاوز يجعل المتلقي في وضعية الانتظار للوعد المعروض من قبل (ابن عاشور) الذي يتمثل في تجاوز ما جاءت به هذه التفاسير[29].

التصريح بالقصد:

حيث يرى (ابن عاشور) أن الناس قد انقسموا حول كلام الأقدمين إلى فريقين: فريق لا يغادر ما شاده الأقدمون، والآخر يهدم ما مضت عليه القرون، ويذهب إلى أن في كلتا الحالتين ضررًا كبيرًا، وأن هناك حالة ثالثة وهي: أن نعمد إلى تفاسير الأقدمين؛ فنهذبها ونزيدها[30]، وهذا هو مقصد تفسيره، والغاية منه. وأما في **(مقدماته العشر)** فتتجه غايته نحو المفسر كما صرح

بذلك في قوله: "وها أنا أبتدئ بتقديم مقدمات تكون عونًا للباحث في التفسير، وتغنيه عن معاد كثير"[31]؛ فيكون قصده من هذه المقدمات النمذجة التي تحرر المفسرين من أسر التقليد، وتنور مسالكهم في هذا العلم.

التعليق على العنوان:

لقد ذكر (ابن عاشور) في تمهيده عنوان تفسيره ابتداءً (تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد، من تفسير الكتاب المجيد)، كما ذكر اختصاره (التحرير والتنوير في التفسير)[32]؛ لكنه لم يشر إلى الأسباب التي دفعته إلى هذا الاختصار، ولعل هذا الاختصار يعود- كما أشرنا سابقًا- إلى وعي (ابن عاشور) بأهمية عتبة العنوان عندما تكون وصفية، إيحائية، إغرائية.

التعريف الجنسي:

وهذا التعريف الجنسي جلي في قوله: "فقد كان أكبر أمنيتي منذ أمد بعيد، تفسير الكتاب المجيد، الجامع لمصالح الدنيا والدين..."[33]؛ فتبين من قوله هذا أن ما يحويه هذا الكتاب هو عمل تفسيري لكلام الله، أي أنه ينتمي إلى جنس كتب التفاسير.

اختيار الجمهور:

إن (ابن عاشور) في **(تمهيده)** لم يحدد جمهوره تحديدًا دقيقًا؛ بل توسع في ذلك كما في قوله: "عسى أن يجد فيه المطالع تحقيق مراده، ويتناول منه فوائد ونكتًا على قدر استعداده"[34]، بينما في **(مقدماته العشر)** ينص على أن من يقصده من هذه المقدمات هو المفسر. ولكن يبقى السؤال: من هو المطالع؟، ومن هو المفسر في وعي (ابن عاشور)؟ إن (ال) في (المطالع) و (المفسر) لاستغراق الجنس؛ وعليه يكون المعنى كل مطالع، وكل مفسر في أي زمان وفي أي مكان، ومن هنا ينفتح معنى هذا (المطالع) وهذا (المفسر) ليكون مطلعًا ومفسرًا ضمنيًّا غير ملموس، يتوقع (ابن عاشور) حضوره في كل زمان ومكان دون أن يحدده بالضرورة[35].

وبناء على ما تمت الإشارة إليه؛ فإن عتبتي: **(التمهيد)** و**(المقدمات العشر)** لدى (ابن عاشور) نهضتا في أفق وظيفة الإجابة على سؤالي: (لماذا) و(كيف) اللذين أشار إليهما (جينيت)؛ كي تتحقق القراءة الجيدة لـ**(تفسير التحرير والتنوير)** من قبل المتلقي.

المبحث الثاني: المبدأ التداولي

يعنى هذا المبدأ- كما في وعي جينيت- بالنظام التداولي للعتبات؛ إذ يرصد من خلاله العملية التداولية من حيث: المرسل، والمرسل إليه، ودرجة السلطة والمسؤولية، والقوة الإنجازية للرسالة[36]، وهو ما نحاول الكشف عنه في هذا المبحث من خلال: (عتبة العنوان، والمقدمات الاستهلالية).

إن للعنوان أهمية بالغة في نظرية التلقي؛ إذ يمثل عقدًا قرائيًّا بين الكاتب وجمهوره؛ ليشرعن هذا العقد القرائي أحقية وضع العنوان من قبل الكاتب لا من قبل غيره، وهذه الأحقية هي ما تجلت في عنوان (ابن عاشور) **(تفسير التحرير والتنوير)**. ويمكن وضع خطاطة تداولية عنوانية، تجمع أطراف العملية التداولية للعنوان على النحو الآتي:

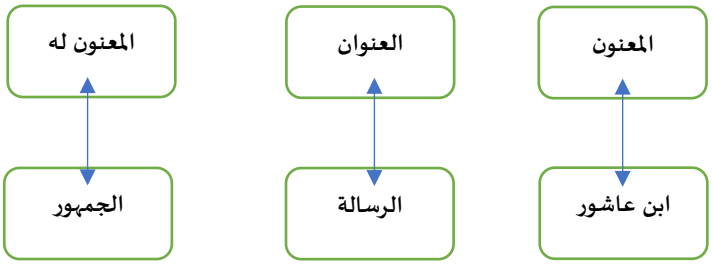

وبناء على هذه الخطاطة؛ فإن المعنون/المرسل لعنوان **(تفسير التحرير والتنوير)** هو المؤلف ذاته، أي (ابن عاشور)؛ لأحقيته القانونية بذلك. وأما المعنون لهم/المرسل إليهم -في وعي (ابن عاشور)- فهم الجمهور بمفهومه الشمولي لا القراء؛ لأن الجمهور أوسع من مجموع القراء؛ فيرتحل العنوان على ألسنتهم وإن لم يقرؤوه؛ لأنه -أي العنوان- يخاطب به بصريًّا وإشهاريًّا الكثير

من الناس؛ فيتلقونه لينقلوه بدورهم إلى الآخرين، وبهذا فهم يسهمون في دورانه التواصلي التداولي[37]، ولعل هذا يفسر لنا دافع (ابن عاشور) في اختصار عنوان تفسيره بدلًا من **(تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد، من تفسير الكتاب المجيد)**. وأما رسالة (ابن عاشور) فتتمثل في الأثر الذي يريد إحداثه من عنوانه **(تفسير التحرير والتنوير)**، فما هذه القوة الإنجازية التي سعى (ابن عاشور) لإحداثها من خلال عنوانه؟

إن (ابن عاشور) أراد من هذا العنوان أن يبقى شاهدًا على الحقبة الزمنية التي عاش فيها، وهي تلك الحقبة الممتدة من أواخر القرن التاسع عشر إلى السبعينيات من القرن العشرين؛ فالعصر الإسلامي في هذه الحقبة ازدادت دوله تشرذمًا وانقسامًا؛ فانعكست هذه الأوضاع القلقة على الإنسان المسلم؛ فعانى من الفقر، والجهل، والمرض، وأصبح بعيدًا عن روح الإسلام الخالص، ولم يبق له من دينه سوى شكليات ليست من الإسلام في شيء، كما أن الحياة العلمية قد بعدت عن الابتكار وانغلقت على نفسها، ولم تعد تستجيب لروح العصر؛ فتحجرت العقول، وتبلدت الأفهام، وظهرت حركات تحررية على المستوى السياسي، والاجتماعي[38].

ومن جهة أخرى؛ فإن (ابن عاشور) أراد من هذا العنوان أن يقول لنا: إذا كانت هناك حركات تحررية تنويرية على المستوى السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، فهناك أيضًا حركة تحررية تنويرية على المستوى الفكري، وهي محاطة بسياج الدين الإسلامي من خلال علم التفسير.

ولكن لماذا أراد (ابن عاشور) أن يحرر وأن ينور من خلال علم التفسير، ولم يكن من خلال علم آخر؟ يجيب (ابن عاشور) على ذلك؛ حيث يقرر أن موضوع التفسير هو القرآن الذي هو كلام الله، وأن المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية، والجماعية، والعمرانية؛ فالصلاح الفردي يهذب النفس ويزكيها، وأما الصلاح الجماعي فيحصل أولًا من الصلاح الفردي؛ إذ الأفراد أجزاء المجتمع، ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه، وأما الصلاح العمراني فهو أوسع من ذلك؛ إذ

هو حفظ نظام العالم الإسلامي، وضبط تصرف الجماعات والأقاليم بعضهم مع بعض، على وجه يحفظ مصالح الجميع، فمراد الله من كتابه هو بيان تصاريف ما يرجع إلى حفظ مقاصد الدين والدنيا[39]. ومن هنا؛ التقى مقصده الإصلاحي الذي ينزع إليه مع المقصد الأعلى للقرآن الكريم بحسب قوله السابق؛ فرأى أن تحقيق هذا المقصد -تحريرًا وتنويرًا- لن يكون إلا من خلال تفسير كلام الله؛ فشرع في تأليف تفسيره؛ كي يحرر المعنى من التقليدية التي نهجها كثير من أئمة المفسرين، وينور العقل العربي بفتح آفاق جديدة، معلنًا شعاره منذ مطلع صفحات تفسيره بأن فيه أحسن ما في التفاسير، وفيه أحسن مما في التفاسير.

فإذا كان ما سبق بيان للمبدأ التداولي على مستوى العنوان؛ فإن للمقدمات الاستهلالية أبعادها التداولية؛ ففي **(التمهيد)** يتموضع (ابن عاشور) بوصفه مرسلا، ويكون المرسل له (المطلع)؛ لينجز من خلال هذا التمهيد رسالته. ويمكن تقريب هذه العناصر التداولية من خلال الشكل التوضيحي الآتي:

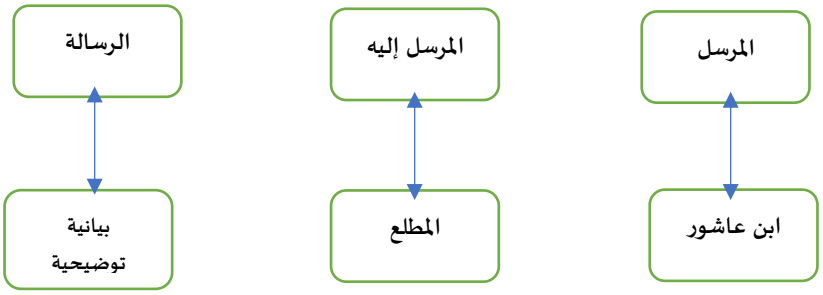

وقد سبق القول: إن المراد بـ(المطّلع) كل مطّلع في أي زمان وفي أي مكان، غير أن هذا (المطّلع) لابد أن يمتلك خاصية القارئ؛ لأنه الحائز الفعلي للكتاب وهو هنا **(تفسير التحرير والتنوير)**. ومن هنا؛ فقد وجه إليه (ابن عاشور) رسالته البيانية التوضيحية التي تجعله يحسن استقبال النص الأصلي، وقد تشكلت هذه الرسالة البيانية التوضيحية من خلال:

أهمية هذا التفسير:

وتمثلت في تجاوز التفاسير السابقة؛ إذ لم يقتصر على الحديث المعاد؛ بل أورد نكتًا لم يسبق إليها[40].

السياق الذي كوَّن هذا التفسير:

حيث قرأ (ابن عاشور) جملة من كتب التفاسير السابقة له مثل: تفسير الكشاف، والمحرر الوجيز، ومفاتيح الغيب، وتفسير البيضاوي، وتفسير الشهاب الآلوسي، وما كتبه الطيبي، والقزويني، والقطب، والتفتازاني على الكشاف، وما كتبه الخفاجي على تفسير البيضاوي، وتفسير أبي السعود، وتفسير القرطبي، والموجود من تفسير الشيخ محمد بن عرفة التونسي، وتفسير الإمام محمد بن جرير الطبري، وكتاب درة التنزيل للرازي...[41]؛ محاولًا تجاوز هذه التفاسير، والإتيان بنكت لم يسبق إليها.

التصريح بقصده من هذا التفسير:

إذ غايته الإفادة مما كتبه السابقون، وتجاوزها في الوقت ذاته، وهو بهذا القصد يكون بين فريقين: فريق ينحاز إلى ما كتبه الأقدمون، والآخر يهدم ما شاده الأولون[42].

وبهذا يكون (ابن عاشور) قد وضع (المطّلع) على تفسيره أمام أهمية هذا التفسير، والجهود التي بذلت فيه، والغاية منه، ولا شك أن معرفة هذه المقتضيات تمنح (المطّلع) التعرف على محيط النص الأصلي.

وأما في **(المقدمات العشر)**؛ فتتشكل أطراف العملية التداولية وفق الخطاطة الآتية:

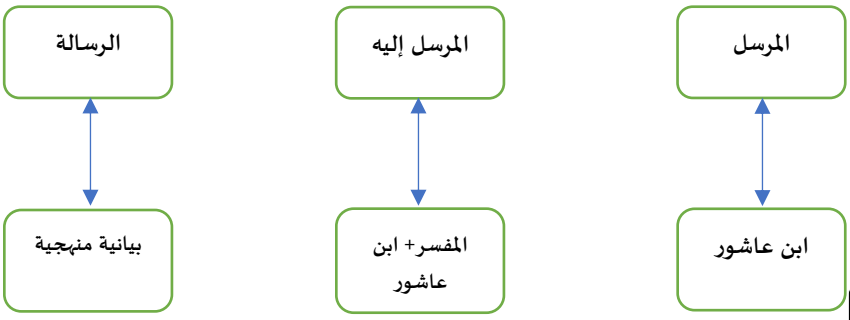

وعلى هذا يكون المرسل -في المقدمات العشر- هو (ابن عاشور)، والمرسل إليه (المفسر)، وأيضًا (ابن عاشور) ذاته، وأما الرسالة فهي بيانية منهجية.

إن (ابن عاشور) أراد من **(مقدماته العشر)** رسم الملامح العامة للتحرير والتنوير، أو بعبارة أخرى أراد أن يبين منهجه في **(تفسير التحرير والتنوير)**؛ فيكون هذا المنهج رسالة له أوَّلًا، ورسالة للمفسر الضمني ثانيًا، وكأنه يقول: إن من أراد أن يحرر وأن ينور في علم التفسير فعليه بهذه المقدمات العشر؛ إذ فيها غَناء عن كثير مما كتب في هذا الفن، وهذا ما ألمح إليه في ملفوظه: "وها أنا أبتدئ بتقديم مقدمات تكون عونًا للباحث في التفسير، وتغنيه عن معاد كثير"[43].

ومما لا شك فيه أن هذه **(المقدمات العشر)** تسلك مسلك البيان المنهجي، كما أنها تنهض على نسق سردي، كل مقدمة منها مكرسة لخدمة وجهة نظر (ابن عاشور) حول علم التفسير. ولكن يبقى السؤال الأهم: هل ترجم (ابن عاشور) هذه المنهجية -التي وجهها له ولكل مفسر- في تفسيره من أجل أن يحرر وأن ينور؟ إن الإجابة عن هذا السؤال ليست سهلة، لا سيما أن تفسيره يعد موسوعة علمية؛ إذ يقع في ثلاثين جزءًا، إلا أنه يمكننا القول: إن (ابن عاشور) حاول تمثل هذه المنهجية، ويمكن رصد شيء من هذا التمثل، على النحو الآتي:

التحليل المركب (الشمولية):

تجلت هذه الآلية في حديثه عن استمداد علم التفسير في مقدمته الثانية[44]؛ باعتبارها آلية للقراءة والفهم، وأداة تمكنه من بناء المعنى التفسيري، وقد هيأت له ذلك ثقافته الموسوعية التي استقاها من علوم ملتئمة شتى، لذلك نجده يقف عند الآية القرآنية مستقصيًا لها من كل الجوانب، كما نجد هذا في حديثه عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء آية 1].

فقد استثمر في تحليل هذه الآية عدة معطيات، منها المعطى النحوي كما في قوله: فضمير الخطاب في قوله: (خلقكم) عائد إلى الناس المخاطبين بالقرآن، أي لئلاَّ يختصَّ بالمؤمنين؛ إذ غير المؤمنين حينئذ هم كفّار العرب وهم الذين تلقّوا دعوة الإسلام قبل جميع البشر؛ لأنّ الخطاب جاء بلغتهم، وهم المأمورون بالتبليغ لبقية الأمم، كما استثمر المعطى البلاغي في حديثه عن براعة الاستهلال في قوله: وفي هذه الصلة براعة استهلال مناسبة لما اشتملت عليه السورة من الأغراض الأصلية، فكانت بمنزلة الديباجة، كما استدعى في تحليل هذه الآية علم الحديث، وعلم الفقه، وعلم القراءات، وعلم اللغة، وعلم الشعر[45].

إن المتأمل في تفسير (ابن عاشور) يدرك هيمنة هذه الآلية على تفسيره؛ حتى إن القارئ ليسأل نفسه: هل هو أمام كتاب تفسير أم كتاب بلاغة؟ هل هو يقرأ كتابًا في اللغة أو كتابًا في القراءات، والحديث، والفقه، وأصوله، والأدب، والشعر؟ وهذه الآلية أخرجته عن كثير من مناهج التفسير السابقة، وحررته منها، والذي حداه إلى ذلك هو استمداده للمعنى التفسيري، وتوسعه في ذلك.

استثمار العقل:

لقد قاده هذا الاستثمار إلى التوسع في الدلالة، والمقارنة بين الآراء، ثم ترجيح ما يراه مناسبًا، وهو ما أشار إليه في مقدمته التاسعة بأن المعاني التي تتحملها جمل القرآن تعتبر مرادة بها[46]، ومن أمثلة ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨﴾[الأعراف آية 8] حيث علَّق على الآيتين بقوله: "...دلَّت الآية على تفاوت درجات العاملين ودرَكاتهم تفاوتًا لا يُظلم العامل فيه مثقال ذرّة، ولا يفوتُ ما يستحقّه إلاّ أن يتفضّل الله على أحدٍ برفع درجة أو مغفرة زلة لأجل سلامة قلب، أو شفاعة، أو نحو ذلك، ممّا الله أعلم به مِن عبادِه ..."، ثم يسوق اختلاف السلف حول الوجود الحقيقي العيني للميزان، حيث أثبته

الجمهور، ونفاه جماعة، منهم الضحاك، ومجاهد، والأعمش، وقالوا: هو القضاء السوي، وقد تبع اختلافهم المتأخرون؛ فذهب جمهور الأشاعرة وبعض المعتزلة إلى تفسير الجمهور، وذهب بعض الأشاعرة المتأخرين وجمهورُ المعتزلة إلى ما ذهب إليه مجاهد، والضحاك، والأعمش، ثم يقول ابن عاشور: والأمر هين، والاستدلال ليس ببيّن، والمقصود المعنى وليس المقصود آلته... إلى أن يقول: والإخبار عن الوزن بقوله: (الحق) إن كان الوزن مجازًا عن تعيين مقادير الجزاء فالحق بمعنى العدل، أي الجزاء عادل غير جائز، لأنّه من أنواع القضاء والحكم، وإن كان الوزن تمثيلًا بهيئة الميزان، فالعدل بمعنى السوي، أي والوزن يومئذ مساوٍ للأعمال لا يرجح ولا يجحف، وعلى الوجهين فالإخبار عنه بالمصدر مبالغة في كونه محقًا[47].

إن هذه الآلية جعلته ينفتح على أكثر من معنى، فنلاحظه في تفسيره يكثر من قوله: ويجوز أن يراد... كما هو مبين في حديثه عن معنى البأس، إذ قال: ويجوز أن يراد بالبأس عذابُ الآخرة، فإنه بأس شديد، ويجوز أن يراد بالبأس الشديد ما يشمل بأس عذاب الآخرة وبأس عذاب الدنيا[48]. وبهذه العقلانية استطاع (ابن عاشور) أن يجمع بين الآراء المتنافرة، كما استطاع أن يفهم النص القرآني فهمًا ديناميًا متطورًا.

التفسير بالرأي:

وهذا ما تبناه في مقدمته الثالثة[49]؛ إذ يرى في ذلك اتساعًا لمعاني القرآن الكريم، وكشفا عن عجائبه التي لا تنقضي، ومن ذلك تعليقه على قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾ [البقرة آية 159]، حيث قال: إن المفسرين يذهبون إلى أن هذه الآية نزلت في علماء اليهود؛ لكتمهم دلائل صدق النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- وصفاته، وصفات دينه الموجودة في التوراة، وفي كتمهم آية الرجم، وهو يقتضي أن اسم الموصول للعهد، فإن الموصول يأتي لما يأتي له المعرف باللام

وعليه؛ فلا عموم هنا. وأنا أرى أن يكون اسم الموصول هنا للجنس، فهو كالمعرف بلام الاستغراق فيعم ويكون من العام الوارد على سبب خاص...[50]. وإن مما أهله إلى تمثل التفسير بالرأي ثقافته الموسوعية من جهة، وطول تأمله في الآية القرآنية من جهة أخرى.

استنباط الفوائد وربطها بالحياة اليومية:

وقد أشار إلى هذا في مقدمته الرابعة عند حديثه عن المقاصد الأصلية التي جاء بها القرآن -وهي في الوقت ذاته غاية المفسر- ومنها التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين[51]، موكِّدًا هذا في أكثر من موضع؛ لإيمانه المطلق بأن القرآن الكريم كتاب إصلاحي، جاء لصلاح حياة الناس أفرادًا وجماعات على المستوى الديني والدنيوي؛ لهذا نجده يحول الفوائد المستنبطة من فوائد جامدة إلى فوائد حية، من ذلك عندما تحدث عن آية الحرابة، وساق تفسيرها واختلاف العلماء فيها، فقد أورد قصة لصّ اسمه (ونَّاس) أخاف أهل تونس بحيله في السرقة، وكان يحمل السّلاح فحكم عليه بحكم المحارب في مدة الأمير محمد الصادق باي، وقتل شنقًا بباب سويقة[52]. وحينما عرض لتفسير (...فَرِهانٌ مقبوضةٌ...) تحدث عن الرهن، وأطنب في ذلك، ثم ربطه بكيفية تعامل أهل تونس مع الرهن بقوله: "وأهل تونس يكتفون في رهن الرباع والعقار برهن رسوم التملُّك، ويعدُّون ذلك في رهن الدين حوزًا"[53]. وقد أسهم حسه الفقهي في هذا الربط بواقع الناس، إضافة إلى عقلانيته المرنة في فهم المعاني القرآنية.

عنايته بالإشارات التربوية:

حيث أكَّد على هذا أيضًا في مقدمته الرابعة من أن أحد أغراض المفسر تهذيب الأخلاق، وهو في الوقت ذاته مقصد عظيم من مقاصد القرآن الكريم[54]. وهذا ما نلمحه في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ۝٢٧﴾ [نوح آية 26-27] إذ قال: "وفي كلام نوح دلالة على أن المصلحين يهتمون

بإصلاح جيلهم الحاضر، ولا يهملون تأسيس أسس إصلاح الأجيال الآتية؛ إذ الأجيال كلها سواء في نظرهم الإصلاحي"[55]. كما نلمح هذه الإشارات التربوية عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات آية 13] حيث قال: " ليس هناك تعارض بين هذه الآية، وبين أن يكون للناس مكارم أخرى في المرتبة الثانية بعد التقوى؛ إذ من شأن هذا أن يكون له أثر تزكية في النفوس مثل حسن التربية، ونقاء النسب، والعرافة في العلم والحضارة، وحسن السمعة في الأمم، وفي الفصائل، وفي العائلات... فإن في خلق الأبناء آثارًا من طباع الآباء الأدنَيْن أو الأعَلَيْن تكون مهيئة نفوسهم للكمال أو ضده، وأن للتهذيب والتربية آثارًا جمّة في تكميل النفوس أو تقصيرها، وللعوائد والتقاليد آثارها في الرفعة والضعة، وكل هذه وسائل لإعداد النفوس إلى الكمال والزكاء الحقيقي الذي تخططه التقوى[56]. وما هذه الإشارات التربوية إلا انعكاس لشغفه بالتعليم والتدريس من جهة، ومن جهة أخرى تعكس دوره الاجتماعي؛ فقد كان مصلحًا اجتماعيًّا، يؤمن بضرورة صلاح المجتمعات الإسلامية على كل المستويات: الدينية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية.

وهنا يمكن القول: إن هذه المقدمات بيان للمنهج الذي سار عليه (ابن عاشور) في تفسيره، ومن جهة أخرى هي قواعد كلية، يضعها بين يدي مخاطبه/المفسر في كل مكان وفي كل زمان؛ أملًا في اتباعها؛ كي يحرر المعنى من قبضة التقليد، وينور العقل بتوسيع آفاقه.

الخاتمة والنتائج:

وبعد؛ فقد توصل البحث إلى جملة من النتائج:

1-براعة اختيار (ابن عاشور) لعنوان تفسيره؛ حيث انفتح هذا العنوان على وظائف متعددة تمثلت في: (التعيينية، والوصفية، والإيحائية، والإغرائية)، ومن زاوية أخرى كشف لنا هذا العنوان عن تأثر (ابن عاشور) بالثقافة الغربية.

2-نهضت عتبتا (التمهيد) و(المقدمات العشر) بوظيفة توضيحية منهجية، تمكن المتلقي من قراءة جيدة للنص الأصلي.

3-وعي (ابن عاشور) بالعملية التداولية، وتجلى هذا الوعي في خطابه للمخاطبين على حسب أحوالهم؛ فإن (العنوان) يخاطب به (الجمهور) لهذا اختصره؛ كي يتم تداوله على أوسع نطاق، في حين أنه وجه (تمهيده) (للمطّلع)، أي القارئ الذي يريد معرفة محيط النص الأصلي؛ ولهذا لم يطل في هذا التمهيد، في حين جعل (مقدماته العشر) (للمفسر) المتخصص الذي يريد التأليف في هذا العلم؛ فبنى هذه المقدمات؛ مسهبًا في ذكر المسائل العلمية التي تمس علم التفسير.

4-هناك علاقة جدلية تفاعلية ذات تأثير متبادل بين العتبات والنص الأصلي، أي بين الخارج والداخل؛ فكلاهما صدى للآخر.

5-كشفت هذه العتبات عن (أيديولوجية ابن عاشور) التي تتبنى البعد الإصلاحي، على مستوى الفرد، والمجتمع.

الهوامش والإحالات:

(1) عبدالحق بلعابد، عتبات - جيرار جينيت من النص إلى المناص، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 1429هـ-2008م: 19.

(2) ينظر: نبيل منصر، الخطاب الموازي للقصيدة العربية المعاصرة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2007م: 25.

(3) ينظر: عبدالحق بلعابد، عتبات - جيرار جينيت من النص إلى المناص: 27-28.

(4) ينظر: نفسه: 44.

(5) عبدالرزاق بلال، مدخل إلى عتبات النص، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، د.ط، 2000م: 16.

(6) هو محمد الطاهر بن عاشور: ولد عام 1296هـ، وتوفي عام 1393هـ، رئيس المفتين المالكيين بتونس، وشيخ جامع الزيتونة، عين شيخًا للإسلام عام 1932م، وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق

والقاهرة، له مصنفات مطبوعة، من أشهرها: مقاصد الشريعة الإسلامية، وأصول النظام الاجتماعي في الإسلام، وأصول الإنشاء، والخطابة وموجز البلاغة، وكتب كثيرًا في المجلات. ينظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط15، 2002م: 174/6.

(7) ينظر: بلقاسم الغالي، شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1417هـ-1996م: 36-37.

(8) ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، د.ط، 1884م: 18/1.

(9) ينظر: نفسه: 28.

(10) ينظر: عبدالحق بلعابد، عتبات - جيرار جينيت من النص إلى المناص: 57.

(11) ينظر: عبدالله الغذامي، ثقافة الأسئلة - مقالات في النقد والنظرية، دار سعاد الصباح، الكويت، ط2، 1993م: 50.

(12) ينظر: بسام قطوس، سيمياء العنوان، وزارة الثقافة، عمان، الأردن، ط1، 2001م: 36-37.

(13) ينظر: محمد بن مكرم بن علي جمال الدين بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط4، 2005م: 80/4-83.

(14) ينظر: جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، د.ط، 1982م: 251/1.

(15) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، 379/14-382.

(16) ينظر: مصطفى حسيبة، المعجم الفلسفي، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، ط1، 2009م: 145.

(17) ينظر: عبدالحق بلعابد، عتبات - جيرار جينيت من النص إلى المناص: 87.

(18) ينظر: محمد بن عبدالجليل، المعنى والتفسير في التحرير والتنوير، الدار المتوسطية للنشر، تونس، ط1، 1436هـ-2015م: 1/7-8.

(19) عبد المالك أشهبون، عتبات الكتابة في الرواية العربية، دار الحوار للنشر، سورية، ط1، 2009م: 60.

(20) عبد الحق بلعابد، خطاب العتبات في أوليات الأدب السعودي - خطاب المقدمة النقدية أنموذجًا، مجلة علامات، النادي الأدبي الثقافي بجدة، السعودية، مج20، ع82، ربيع الآخر 1436هـ-فبراير 2015م: 40.

(21) ينظر: عبد الحق بلعابد، عتبات - جيرار جينيت من النص إلى المناص: 87.

(22) ينظر: ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير: 1/7-8.

(23) نفسه: 1/9.

(24) نفسه: 1/8.

(25) ينظر: نفسه: 1/101.

(26) نفسه: 1/7-8.

(27) نفسه: 1/5-8.

(28) نفسه: 1/7.

(29) ينظر: نبيل منصر، الخطاب الموازي للقصيدة العربية المعاصرة: 72-73.

(30) ينظر: ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير: 1/7.

(31) نفسه: 1/9.

(32) ينظر: نفسه: 1/8-9.

(33) نفسه: 1/5.

(34) نفسه: 1/8.

(35) ينظر: فولفغانغ إيزر، فعل القراءة - نظرية جمالية التجاوب في الأدب، ترجمة: حميد لحمداني، والجيلالي الكدية، مكتبة المناهل، فاس، د.ط، د.ت: 30.

(36) ينظر: عبد الحق بلعابد، عتبات - جيرار جينيت من النص إلى المناص: 53.

(37) ينظر: نفسه: 73.

(38) ينظر: بلقاسم الغالي، شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره: 17.

(39) ينظر: ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير: 1/38-39.

(40) ينظر: نفسه:1/7.

(41) ينظر: نفسه: 1/7.

(42) ينظر: نفسه: 1/7.

(43) نفسه: 1/9.

(44) ينظر: نفسه: 1/18.

(45) ينظر: نفسه: 4/217-218.

(46) ينظر: نفسه: 1/93.

(47) ينظر: نفسه: 8/28-30.

(48) ينظر: نفسه: 15/249.

(49) ينظر: نفسه: 1/28.

(50) ينظر: نفسه: 2/65.

(51) ينظر: نفسه: 1/41.

(52) ينظر: نفسه: 6/182.

(53) نفسه: 3/122.

(54) ينظر: نفسه: 1/40.

(55) نفسه: 29/214.

(56) ينظر: نفسه: 26/262-263.